الندوة اللبنانية في عامها العشرين

بيروت ، من كمال سليمان الصليبي :

ان الجمهورية اللبنانية، برقعتها ونظمها السياسية الحالية ، هي ثمرة لنهج في التفكير الوطني سبق باكثر من عقد من السنين استقلال دولة لبنان الكبير ، ومن ثم اعلان دستور الجمهورية ، وزوال الانتداب الفرنسي ، وجلاء القوات الاجنبية عن البلاد . وما يتمتع به اللبنانيون اليوم من استقلال وطني ، ومن حريات سياسية يضمنهـا القانون والعرف ، ان هو الا نتيجة وعي فئة من القادة وضحت في ذهنها صورة الدولة اللبنانية قبل قيامها، فاجرت الاتصالات الداخلية والخارجية اللازمة لتحقيق هذه الصورة، وبادرت بعد ذلك، بالتعاون مع سلطة الانتداب الفرنسي ، الى خلق انظمة ومؤسسات تكرس الكيان اللبناني واستقلاله وحرياته .

ورافق بعض هؤلاء القادة نمو الجمهورية اللبنانية في المراحل الاولى ، فكان وجودهم كفيلا باستمرار الفكرة اللبنانية الاستقلالية كما كانوا قد تصوروها، وبغرسهـا وترسيخها في نفوس جيل جديد من اللبنانيين . وكان ثمة تعـارض بين مثالية هؤلاء القادة والواقع اللبناني الذي لم يكن مطابقا تمامـا لفكرتهم الاصلية، فجهدوا الى تحويل هذا التعارض الى حوار صريح مثمر بين مختلف الفئات اللبنانية ادى في نهاية الامر الى تفاهم عـام عرف « بالميثاق الوطني » . ولم يكتمل استقلال لبنان بزوال الانتداب حتى صار هذا « الميثاق » ، الذي لا يرتكز على نص ، ركنا من اركان الحياة الوطنية وتقليدا دستوريا له فعالية القانون وقدسيته . وبهذا « الميثاق » اكمل الجيل الاول من قادة لبنان عملهم في تركيز الجمهورية على اسس سليمة صالحة .

ويتراءى لي ان الندوة اللبنانيـة ، التي رافق تأسيسها اكتمال الاستقلال ، هي ، في روحها على الاقل ، قسم من التراث الغالي الذي خلفه لنا بناة لبنان . فقد شاء قادتنا الاوائل ان يخلفوا لنا بلدا ديمقراطيا لا تقتصر فيه القيادة على الحكام بل تتعداهم الى جميع عناصر الشعب الرشيدة. والندوة اللبنانية ، في جوهرها ، ملتقى لمثل هذه العناصر ومنبر لتبادل الآراء بين قادة الفكر ، الامر الذي يشكل ضمـانة لاستمرار الكيان الديمقراطي . وعلى الرغم من كون الندوة اللبنانية مؤسسة خاصة لا تربطها بالدولة صلة رسمية ، فقد اصبحت مع مرور الايام جهازا هاما من اجهزة الحياة الوطنية في لبنان ، يرتاح المواطن الواعي الى وجودهـا ويشارك في نشاط الدولة، اذا اراد ، عن طريقها.

ولعل خير ما في الندوة اليوم تلك الصداقات الكثيرة والاتصالات الانسانية الواسعة التي خلقها مؤسسها الاستاذ ميشال اسمر في العشرين سنة التي مرت على وجودها . وتشمل هذه الصداقـات والاتصـالات كلا من العناصر الواعية في البلاد واصحاب النفوذ والسلطة فيهـا . ولا ريب ان الاستاذ اسمر حقق من هذه الناحية مـا لم يستطع غيره تحقيقه . فجاءت الندوة خير مؤسسة تجمع بين صاحب الفكرة والقادر على تنفيذها ، وتساعد من ثم على استمرار لبنان كبلد ينير طريقه التفكير الحر .

ويعرّف الاستاذ اسمر الندوة بانهـا مؤسسة فكرية تعنى بالشؤون اللبنانية. فلبنان هو موضوع الندوة الاساسي ومحور نشاطها ، والنمو اللبناني السليم هو هدفها . وتحاول الندوة ، كمؤسسة ، ان تواصل العمل الذي قام به بناة لبنان ، كافراد ، خارج الحكم ، وان تحافظ على المبادىء التي قامت الجمهورية اللبنانية عليها ، وان تكتشف اصحاب

الافكار والمواهب فتبرزهم وتشجعهم على وضع كفاءاتهم في خدمة البلاد . ولا احسب ان الندوة قد توفقت دائما في اكتشافاتها هذه ، ولعلها ساهمت مرارا في تشجيع عناصر غير جديرة بالتشجيع ، او غفلت مرارا عن عناصر ممتازة . غير ان قيامها بهذه المهمة هو بحد ذاته حري بالتقدير .

ومن الطبيعي ان تعتمد الندوة الاسلوب الصامت في هذه الاعمال الاساسية التي تقوم بها . فالاطلاع المتواصل على الشؤون العامة ، وتذكير اولي الامر بالمبادىء الصحيحة ، وتقصي الاسس القويمة للتنمية والاصلاح ، وتنظيم الاتصالات بين الافراد والمؤسسات ، واكتشاف المواهب الكامنة في البلاد ، كلها امور تتطلب العمل الهادىء . غير ان اعمال الندوة لا تقتصر على هذه الامور . فالندوة تعرّف نفسها الى الجمهور اللبناني عن طريق المحاضرات المسائية التي تنظمها، والمنشورات المختلفة التي تصدر عنها ، والبرنامج الاسبوعي الذي تخصه بها الاذاعة اللبنانية . ويبدو لي ان اعمال الندوة العلنية هذه لا تقل اهمية عن اعمالها الصامتة. فمحاضرات الندوة مدرسة تدرب المواطن على التفكير المنظم في شؤون بلاده ، والسلسلة المطبوعة من هذه المحاضرات لا تزال خير ما ينشر في المواضيع اللبنانية بشكل منتظم . ولا شك ان الندوة ، بفضل محاضراتها ومنشوراتها ، قد ساهمت كثيرا في انماء الروح الوطنية والثقافة المدنية في البلاد .

وعلى الرغم من ان الندوة ، في محاضراتها كما في سائر اعمالها الثقافية، تعير المواضيع الفنية والادبية والفلسفية اهتماما كثيرا، فان افضل ما تكون عليه هو عندما ينحصر اهتمامها في الفكر العملي والمواضيع الاجتماعية . ويعود السبب في ذلك على الارجح الى تخلف الحياة الثقافية في البلاد ، من حيث الاطلاع والدربة ، عن الحد الذي يحصل فيه خلق او ابداع . وباعتقادي ان التقدير الكبير الذي نالته سلسلة « محاضرات الندوة » باستحقاق منذ اول صدورها سنة ١٩٤٧ ، في لبنان والخارج ، يعود اكثره الى ما تحتويه هذه السلسلة من مواضيع تتعلق مباشرة بلبنان والشؤون اللبنانية في حقل السياسة ، والاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، والعلوم التطبيقية والانمائية ، لا الى غيرها من المواضيع .

ولا يخفى ان الندوة مؤسسة فريدة من نوعها في لبنان ، يعود الفضل الاكبر في وجودها واستمرارها الى نخوة مؤسسها ومثابرته ووضوح الفكرة اللبنانية في ذهنه. ومن الصعب علينا اليوم، بعد ان استقرت الاوضاع اللبنانية ، ان نتصور الصعوبات الكثيرة التي جابهتها الندوة في عملها الوطني منذ اكتمال الاستقلال وساهمت في التغلب عليها . فقد مرت ايام على لبنان كادت الندوة فيها ان تكون المؤسسة الوحيدة التي ضمنت مجال البحث في الشؤون اللبنانية بشكل جدي فعال ، بعيد عن الحزبية والغرض . وقد اعتاد اللبناني الواعي منذ ذلك الحين ان يثق باخلاص الندوة للمبادىء التي قامت من اجلها ، وان لا يتقدم للاشتراك في اعمالها الا باحسن ما عنده من المعرفة والفكر والروح الوطنية .

ومن البديهي ان رسالة الندوة لم تتوقف عند استقرار الاوضاع السياسية في البلاد . فالوعي المتواصل شرط من شروط الحياة الديمقراطية ، واعادة النظر في اسس المجتمع بين فينة واخرى ضرورة يفرضها النمو والتطور . وهذا ما يجعل الحاجة الى مؤسسة كالندوة مستمرة. وللندوة دور تلعبه ، ان هي شاءت ، في تعريف خبرة لبنان السياسية الى العالم . ومن الملاحظ ان المراقبين السياسيين في الدول الكبرى يبدون اليوم اهتماما متزايدا في التجربة اللبنانية التي جمعت فئات مختلفة في تعايش وحوار وتفاعل وطني بناء. ومنهم من يقترح الصيغة اللبنانية للتعايش الوطني كمثال تقتدي به الدول التي ما زالت تعاني الانقسامات الدينية والعنصرية . وقد تصيب الندوة من هذه الناحية ان هي قامت بنشر ترجمات انكليزية وفرنسية لاهم ما القي فيها من محاضرات في الشؤون اللبنانية عبر السنين ، لكي يتسنى لمن يهمه الامر في الخارج ان يقف على حقيقة لبنان وسبل تدبيره .

ومن ناحية اخرى، فان مسؤوليات الندوة، في لبنان بالذات، قد زادت على اثر الاستقرار السياسي

بقدر ما زاد هذا الاستقرار في توسيع آفاق الحياة الوطنية . فاستقرار البلاد سياسيا يساعد على تحرير المواطن من القلق ويشجع بالتالي اقباله على النواحي الاخرى من الحياة ، ولا سيما الثقافية منها . وما تركيز الندوة على الفن والفكر والادب في الآونة الاخيرة غير انعكاس لهذه الظاهرة . وقد يتمنى البعض لو ركزت الندوة نشاطها ، ولو الى فترة من الزمن ، على قضايا التربية والتعليم قبل ان تنتقل الى الشؤون الثقافية الصرفة. فالتخلف الذي يعانيه لبنان في حياته الثقافية ما هو الا نتيجة لافتقار البلاد الى نظام تربوي صالح يدرب النشء على التفكير الصحيح. والحاجة الى نظام كهذا ملحة، ولعلها اكثر الحاجات الوطنية اهمية في الوقت الحاضر . والندوة اللبنانية اليوم ، على الارجح ، هي المؤسسة الوطنية الوحيدة القادرة على تنسيق الجهد للاهتمام بهذا الامر على الصعيد الذي يستحقه.

ازمة المثقفين ، أو الطاحونة التي قتلت المعداوي

القاهرة ، من احمد رشدي حسين :

الصورة المادية للموقف كانت اكبر من اي تدليل. جنازة كامل الشناوي يلتف حولها المئات من مختلف الاتجاهات الفكرية والادبية، وجنازة انور المعداوي لا يسمع بها احد ، فقد تمت بهدوء في احدى قرى محافظة البحيرة . هذا هو المشهد الاول . ثم يبدأ المشهد الثاني بوابل من المقالات النارية العاطفة تنهال على القارىء من مختلف المنابر الصحفية والاذاعية والتلفزيونية تكريما لذكرى الشناوي، وصمت مخيف يحيط بذكرى المعداوي. تلك هي الصورة الخارجية التي عاجلت المواطن في مصر خلال فترة لا تزيد عن الاسبوعين بين وفاة الاول ووفاة الثاني . اما الصورة الداخلية فقد كان التاريخ يرصدها على نحو مغاير تماما .

كان التاريخ يقول ان الحصيلة النهائية لحياة كامل الشناوي هي ديوان « لا تكذبي » ، وان حصيلة انور المعداوي هي ثلاثة كتب في النقد الادبي عناوينها « نماذج فنية في النقد والادب » و « علي محمود طه الشاعر والانسان » و « كلمات في الادب » . كان التاريخ ايضا يقول ان دلالة كامل الشناوي التي اجتمع حولها هذا الرهط الغفير من ادبائنا هي « ليالي الاندلس » التي كان يقيمها لهم او يقيمونها له ، بينما دلالة انور المعداوي التي لم يجتمع حولها احد هي كبرياؤه العظيمة وشجاعته الاسطورية وكرامته التي لم تهدر .

ان هذه الصورة التي تجمع بين الاحتفال المسرف في زيفه وافتعاله بشخصية كامل الشناوي ، وبين الصمت المفرط في تجاهله شخصية انور المعداوي ، ترسم في وضوح مرعب حجم الطاحونة القاتلة التي تأكل المثقفين في بلادنا ، وتجسد ازمتهم التراجيدية الحادة .

فلم يكن انور المعداوي طوال حياته الا نموذجا للمفكر الذي يطابق بين الفكر والسلوك في الحياة. لذلك بدأ حياته الادبية على صفحات « الرسالة » في الاربعينات ، خصما لمعظم المدارس الادبية القديمة . ولكنه لم يكن ذلك الخصم الذي يصطنع الضجيج حتى يرتفع نجمه على سماوات الشيوخ من رواد ادبنا الحديث . بل كان يحاول ، ويبذل في محاولاته غاية الجهد ، ان يكون امينا مع النص الذي يعالجه او الاتجاه الذي يحلله او الشخصية التي يتناولها ، مستهديا في امانته تلك بذوقه المرهف وثقافته الرومنطيقية ومنهجه الانطباعي المتأثر بكشوف علم النفس . ولقد تفاعلت هذه الثقافة الرومنطيقية التي نهلها المعداوي من عيون الادب الغربي مع طبيعة تكوينه الشديد الحساسية ، ومن ثم خلقت منه « الفتى » الرومنطيقي الاول في حياتنا الادبية. كانت مقالاته في « الرسالة » اقرب الى الشعر ، حتى في هجومه الحاد على خصومه . وما اكثر رثاءاته لاصدقائه المقربين الى روحه، وما اكثر شجونه العاطفية وتعاساته في الحب .

ولقد ظلت الفروسية الرومنطيقية هي المضمون

الحي العميق في وجدان المعداوي الى آخر لحظات عمره ، ولكنه كان انسانا متطورا وفنانا اصيلا ، فلم يتجمد في اطار مرحلته الباكرة من مراحل تطوره الاولى، وانما تفاعل مع الثقافات الوافدة من الخارج والظواهر الجديدة النابتة في الداخل . وهكذا استطاع في منتصف الاربعينات ان يكتشف احد كبار رواد الادب الواقعي في اللغة العربية ، وهو نجيب محفوظ . ولقد ظل نجيب محفوظ من القضايا الهامة الرئيسية التي تشغل المعداوي ؛ لا كشخصية ادبية ، وانما كتيار فني . هكذا كان موقفه من علي محمود طه ، موقف المكتشف للظاهرة الجديدة . لذلك تتمتع خطواته النقدية باصالة نادرة بين نقادنا المحدثين. فمن السهولة بمكان ان نتبين بصمات النقاد الغربيين على اغلب صفحات النقد العربي المعاصر . وبالرغم من ان المعداوي قرأ للاوربيين وتمثلهم جيدا ، الا انه تمكن من ان يخلق لنفسه العنصر الاصيل في كل نقد عظيم ، عنصر التجاوب الحر المباشر مع العمل المنقود .

فهذا العنصر هو الذي قاده الى «الاداء النفسي» في الشعر . لقد كان لقاؤه بالشعو الرومنطيقي لقاء طبيعيا يتلاءم مع تكوينه العاطفي . ولكن لقاءه بشعر علي محمود طه بالذات ، هو الذي وجهه نحو فكرة الاداء النفسي التي تنطلق من مناقشة فردية الشاعر التي يتميز بها عن جميع الشعراء ، حتى اولئك الذين يشاركونه الاتجاه العام في الفكر والفن . كذلك كان هذا العنصر هو الذي وجهه فيما بعد نحو فكرة الالتزام حين التقى في رحلاته العديدة بين الادب والحياة مع نجيب محفوظ . ولا شك ان المعداوي ظل الرومنطيقي الاول كما كان فيما مضى ، ولكنه كان رومنطيقيا ثوريا نجح في ان يمد جسرا قويا بين التشاؤم في الشعر المصري الحديث ، وبين التشاؤم في واقعية نجيب محفوظ . ذلك ان هذه الواقعية نفسها لم تخل من مسحة رومنطيقية تجلت في « خان الخليلي » في اوضح صورها .

ان هذا الجسر الذي اقامه انور المعداوي بين رومنطيقية علي محمود طه وواقعية نجيب محفوظ هو الوجه الآخر للفتى الرومنطيقي الاول ، الوجه الاجتماعي البائس الذي طالعه في مصر بعد الحرب العالمية الثانية . اي ان الدلالة الاجتماعية للادب كانت مثارا لاهتمام المعداوي وهو في غمرة انشغاله بالهموم الرومنطيقية للجيل المعاصر له . كما ظلت الرومنطيقية هي الحس الوجداني الاصيل وهو في اوج نشاطه النقدي في الدعوة الى الالتزام. غاية ما هناك انه في مرحلته الاولى ركز على النغمة الرومنطيقية التي اثرت له «الاداء النفسي»، بينما نراه في مرحلته الثانية يركز على النغمة الاجتماعية التي اثرت له ما دعاه بالواقعية الملتزمة .

وقد كان من الممكن لهذا المنهج الذي يزاوج بين جوهر الذات الفردية وبين المضمون الاجتماعي للتجربة الانسانية ان يعايش حياتنا الادبية عن كثب ويواكبها في حرارة ، لولا اننا منذ بداية الخمسينات قد انتقلنا الى مرحلة تتسم بالاستقطاب في الحركة الفكرية والادبية . ذلك ان الاتجاه السلفي كان قد استنفد دوره وانتهى الى الجمود التام ، كما ان الاتجاه التقدمي تكتل هو الآخر في الطرف النقيض ، محتميا خلف رد الفعل ازاء اليمين ، بما يمكن تسميته بالجمود العقائدي . ولم يجد انور المعداوي مكانا طبيعيا له في دائرة السلفيين الذين كونوا فيما بينهم معسكرا للرجعية الادبية ، كما لم يجد مكانا له في دائرة اليسار الذي كون هو الآخر معسكرا ثوريا يرفض اللقاء مع الوسط او المعتدل بأية صورة من الصور . هذا على الرغم من اننا موضوعيا كنا ما نزال في اطار الجبهة الوطنية الديمقراطية المعادية للاستعمار. وقد تسببت الخلخلة الايديولوجية في صفوف اليسار ان تغيب هذه الجبهة في ميدان الفكر والادب .

ولقد كان المكان الطبيعي للمعداوي وامثاله ، ممن يقبلون الالتزام المفتوح ويرفضون الالتزام الماركسي كما يرفضون اليمين ، هو هذه الجبهة الغائبة . ومن ثم تسبب غياب الجبهة في ان يحارب المعداوي وامثاله ، بصورة فردية ، اقطاب اليمين واقطاب اليسار جميعا . وبالرغم من نبالة الموقف وحسن النية الكامن وراءه ، الا ان النهاية المتوقعة لاية معركة لا ينضم فيها الجندي الى جيش منظم، هي الهزيمة . ولقد اتخذت الهزيمة عند المعداوي صورة الصمت والاعتكاف . وربما تبرز، عند هذه

النقطة ، الكثير من الاسباب الصحيحة التي تبرر عزلته . كأن يقال مثلا ان السبب هو خروجه من ادارة الثقافة الى التدريس بوزارة التربية والتعليم . كما يقال ايضا في معرض التبرير الموضوعي للازمة انه تخلف ثقافيا عن روح العصر . وربما يقال انه اجتاز مأساة عاطفية بالغة العنف آثر كتمانها عن اقرب الاصدقاء . الا انني اعتقد ان هذه كلها لم تكن سوى مظاهر الازمة ، لا الازمة نفسها .

فالازمة تبدأ منذ بدأ هذا الاستقطاب الايديولوجي ، الذي انتهى الى عشرات التفريعات الصغيرة على الاستقطابات المصلحية ، النفعية ، الانتهازية . حينئذ صعد الى اعلى المناصب امهر الناس في الملق ، ولمع فوق اعلى المنابر اكثرهم زيفا . هذا هو الوجه السلبي . اما الوجه الآخر فكان ميلاد جيل جديد قد لا يؤمن كثيرا، ولكنه يعمل الكثير .

ولم تحاول العين الرومنطيقية الحزينة التي كان يجلس صاحبها على احد مقاهي الجيزة ثم على احد مقاهي الدقي، لم تحاول ان ترى سوى الجانب السلبي البشع من مأساة الجيل المفتت المهزوم . لهذا آثرت المضي في الصمت ، واستجابت للتشاؤم الاسود ، بالرغم من ومضات الامل التي كانت تشع بين الحين والآخر بنور قصة جيدة لنجيب محفوظ او يوسف ادريس ، او قصيدة جميلة للسياب او صلاح عبد الصبور . عندها ، كان انور المعداوي يتمسك بهذا الشعاع من الامل الى آخر لحظة، فيكتب ويكتب ويكتب؛ ولكن ما اقل الومضات وما اشح الضياء الذي ينير ، فما يلبث الظلام ان ينسدل ، وتعود العين الرومنطيقية الحزينة الى اجترار سواد الرؤية.

ان ارتفاع ضغط الدم في شرايين مخ انور المعداوي ليس الا تعبيرا اصيلا عن الغليان الذي تضطرم بناره ، في صمت ، حياتنا الادبية . وما تمزق شرايين هذا المخ الا تعبيرا اصيلا عن تمزق الاوصال نهائيا في حياتنا الادبية . لم يرد انور المعداوي ان يكون « دون كيشوت » في معارك فردية ، ولم يشأ ان يكون عضوا في شلة تمضي سهراتها في مضغ الآخرين وعمليات النصب المشروع الذي يصيب الجيوب بأورام خبيثة ! وللاسف الشديد ليس هناك مكان آخر وسط في دنيانا ، فقد فكر انور المعداوي كثيرا وتوتر مرارا (خلال العام الذي قضاه بعيدا عن القاهرة) وانفجر اخيرا لترسم جنازته، التي لم يشاهدها اديب واحد، ابشع صور المأساة : مأساة اولئك الذين لم يودعوه بالمئات او الزهور او المقالات ، لانهم صدقوا اخيرا — فهم لم يجتمعوا يوما على الدلالة التي نستخلصها من حياته : الكبرياء العظيمة والشجاعة الاسطورية والكرامة التي لم تهدر . كانوا مشغولين عن هذه المعاني كلها بالموائد الملونة .

ان صمت انور المعداوي وموته المبكر (٤٥ عاما) يشكلان علامة استفهام كبيرة تحاصر جيلنا بقوسين كبيرين . وليس من الغريب ان تحدث قبيل وفاته وبعدها هزة شديدة لمياه البركة الآسنة التي طال سكونها . فيحاول البعض حل الاقواس وعلامات الاستفهام في موجة جماعية هادرة بدأت بخطاب مفتوح الى وزير الثقافة بقلم الدكتور لويس عوض على صفحات « الاهرام » (ملحق الجمعة ١٩٦٥/١١/١٩) . وقد انطلق الخطاب وانتهى الى ما دعاه بقلق المثقفين ازاء الفرق الرجعية التي تكتلت خلال الاعوام الثلاثة الاخيرة وراء اسوار رسمية هي مجلات ومنابر وزارة الثقافة. يقول الدكتور عوض بصراحة وصدق : « كان واضحا للعيان ان محاكم التفتيش غدت قاب قوسين او ادنى » . ذلك ان هذه المنابر شنت حملة ضارية ضد كل فكر تقدمي ، باسم الاسلام والتراث والقومية العربية . ومن ناحية اخرى حاولت وزارة الثقافة ابان تلك الفترة ان تدخل المعركة من باب آخر لا يقل خطورة، هو امتصاص قدرات ادبائنا واصالتهم الثورية، وذلك لجرف انظارهم عن المعركة الحقيقية عن طريق اغرائهم بالمال الوفير الذي يتقاضونه من الاعمال التافهة التي يجب ان ينتجوا منها كما هائلا للاذاعة والمسرح والسينما والتلفزيون . وهكذا كانت بعض اجهزة الثقافة ، كما يصفها لويس عوض بحق ، « تؤمن بالانجازات الكثيرة من اجل الضجيج الكثير ، او تؤمن معاذ الله بطريقة الرومان في سياسة الجماهير بالخبز والسيرك لتصرفه عن كل تفكير جاد في الحياة العامة » .

وقد كان لنجاح خطة التكتل الرجعي في اثارة البلبلة ، ونجـــاح وزارة الثقافة في اغتيال ثورية الادباء ومبادرتهم وعزلهم عن الجماهير ، وتفتت اليسار الفكري والفني على المقـــاهي والندوات والسهرات الى عشرات اللافتـــات الشخصية في جوهرها ، ان كانت الدولة وحدها هي التي تصدت للتجمهر اليميني تصديا عمليا ، فاخذت في تصفيته بينما اليسار مشغول بالتدليل على صحة الاشتراكية بابي ذر الغفاري ، ولا يسمع ان هناك كتبا – على سبيل المثال – تسمى « معـــالم على الطريق » او «جـــاهلية القرن العشرين » ، الا بعد ان تتحفظ السلطات على مؤلف هذا وذاك ، حرصا على الامن العام . وهكذا « كان محزنا حقا ان تتصدى الدولة وحدها لكشف هذه الغمة دون ان يكون لكتّاب البلد وفنانيها ومفكريهـــا نصيب واضح في مقاتلة الرجعية وافكارها، وهو ما دل على انهم لم يكونوا في مستوى تطورنا الاجتماعي والفكري ، او انهم كانوا يعانون ازمة نفسية جماعية بلبلتهم واخرجت زمامهم من ايديهم » ، كما يختتم الدكتور عوض خطابه المفتوح الى وزير الثقافة .

ولقد كان مقال لويس عوض على موعـــد مع الدستور الثقـافي الذي طرحته « الاشتراكي » ، النشرة الرسمية لامانة الدعوة والفكر بالاتحـــاد الاشتراكي (في ١٩٦٥/١١/١٣) . هـذا الدستور الذي اتخذ شعاره « نحو وحدة فكريـة للمثقفين » . وبالرغم من كل ما يمكن ان يؤخذ على هذا الدستور من تحفظات، فانه يبقى سليما من حيث الجوهر . فالتفاصيل التي قد تختلف حولهـــا تحتل المقام الثاني ، اما الخطوط العامة فهي جديرة حقا بالاتفاق عليها والالتفاف حولها . فالخطوط التي تقول « باسناد قيادة الاجهزة الفنية والثقافية الى كادر واع عالي الكفاءة من الاشتراكيين وحدهم »؛ وبان «الرجعيين وحدهم هم الذين يدعون الى تغليب الكم على الكيف في الاعمال الفنية » ؛ وباننا في تقييمنا للفنون « ينبغي ان ندخل في الاعتبار ان الاعلام بين الفنانين قبل قيام الاشتراكية كانوا دائما انسانيين بمعنى انهم عبروا عن زمانهم ومكانهم ثم ارتفعوا عن حدود الزمان والمكان » ؛ وبانه على الاشتراكيين ان يؤكدوا في وضـــوح « ضرورة الالتحام العضوي بين الشكل والمضمون في العمل الفني الواحد، ويلحوا على ان العمل الفني الخالي من الجودة الفنية لا يمكن ان يعد عملا فنيا مهما كان تقدميا من الناحية السياسية » ؛ – لا شك ان هذه الخطوط العامة كانت صدى عميقا لما تختلج به الصدور ، ولا شك ايضا ان هذه الخطوط العـامة يمكن الاتفاق عليها والالتفاف حولها ، وهذا هو المقصود بالوحدة الفكرية بين المثقفين . فليس المقصود على الاطلاق هو تجميد الصراع الخلاق بين الادباء والفنانين ، بل هو تجسيد الحد الادنى من الاتفاق، وهو اصغر رقعة من الارض المشتركة بعيدا عن المقاهي والسهرات الملونة .

وبينما استطاعت الرجعية ان « تحتوي » الميثاق الوطني ، بمعنى ان تجتهد في تخريـــج التفسيرات المزيفة له ، كما سبق لها ان رحبت بالثورة حتى « تحتويها » استعدادا لاكلها ، لم تحاول هذه المرة ان ترحب بدعوة « الاشتراكي » الى الوحـــدة الفكرية بين المثقفين : فراحت تشكك اول الامر في امكانية قيـام هذه الوحدة ، ثم بدأت تتهم هذا الدستور علانية بانه « زدانوفية جديدة » كما جاء على لسان احد الدكاترة بالبرنامج الثاني من الاذاعة (« مجلة اخبـار الادب ») . الا ان الظـاهرة الرئيسية لحركة المجتمع الثقافي كانت اتفاقا شبه تام على ضرورة هـــذا الدستور الذي ينبغي في رأي البعض ان يتوج بمؤتمر للمثقفين ، وفي رأي البعض الآخر ان هذا المؤتمر سوف يتيح الفرصة للرجعية لان تتجمع بصورة رسمية وقد توافق على «النصوص» كتكتيك يفوت الفرصـة على الجناح التقدمي – وعند التنفيذ ، هناك الاغلبية الساحقة من الاجهزة التنفيذية ومؤسساتها في ايدي اليمين تستطيع ان تطبق النص على هواها المضاد للتقدم . خاصة وان ميثاق المثقفين الذي نفترض صدوره عن المؤتمر لا علاقة له بتفاصيل الاعمـــال الفنية وانما بالخطوط العامة للحركة الادبية. وقد اوجزت «الاشتراكي» في اعدادها التالية مجموع الآراء التي تناثرت على منابر الرأي العام ، سواء في الندوات او المقالات، وانتهت الى « ان المثقفين المصريين يعيشون في حالة من التشتت والفوضى ليس لها ما يبررها » (٢٧/١١/١٩٦٥) .

واذا كانت الرجعية لم تستطع ان تستغل دعوة « الاشتراكي » استغلالا يعيد اليها مراكزها المفقودة، فقد واتتها الفرصة كاملة في عيد العلم حين وقف الاستاذ عزيز اباظة ، رئيس لجنة الشعر وصاحب بيانها الشهير ، وقف باسم كبار علمائنا في الطب والهندسة والكيمياء والزراعة وباسم ادباء وفناني العامية المصرية في المسرح والاغنية ، وقف يعلن ان العروبة والاسلام كلاهما في خطر داهم من زحف العامية . والحق انها كانت مفاجأة الموسم الثقافي الذي يبدأ من نهاية ١٩٦٥ مع بداية ١٩٦٦ . لم تكن مفاجأة ان ينال عزيز اباظة جائزة الدولة التقديرية ، ولم تكن مفاجأة ان يتكلم في عيد العلم باسم جميع الفائزين لهذا العام ، لاننا نعلم ان الرجعية الادبية ما تزال تحتل مراكز القوة . الا ان المفاجأة الحقيقية كانت هذه الخطبة، التي يبدو ان صاحبها كان قد اعدها للعرش قبل ١٩٥٢ ثم نسيها في جيبه او حالت الظروف بينه وبين القائها امام الملك ، وبعد ١٣ عاما لم يكلف نفسه — صادقا — عناء كتابة خطبة جديدة .

ولا شك ان الرجعية هذه المرة كانت شديدة السذاجة ، فقد اخطأت حساب الزمان والمكان . ولكن ، قبل ذلك كله ، ما هي عريضة الاتهام التي قدمها رئيس لجنة الشعر الى السيد رئيس الجمهورية؟ انها تشتمل على مدخل وعرض للقضية في نقطتين ثم المطلوب. اما المدخل فيقول « ان في الشرق العربي كله — وبلادنا جزء منه — جماعات ليست كثيرة العدد، ولكنها كثيرة المدد، لعلها ترى ان الخير لا يقوم الا على انقاض هدم الجليل من مأثوراتنا ، مأثورات امتنا العربية». وتبدأ القضية من نقطة اولى تقول: « وعندي ، وعند جمهرة هذه الامة ، ان الغض من هذه المأثورات كبيرة من الكبائر، فكيف اذا كان هذا المأثور هو لغة القرآن الكريم ؟ » . ونقطة ثانية تقول : « وكيف اذا كان هذا المأثور هو اللغة التي لا تربط العرب جميعا الا روابطها ولا تلم شملهم جميعا يوم سعدهم ويوم بؤسهم الا وشائجها ؟ هذه الجماعات في خفاء ووضوح تقذف العامية على الفصحى بحجة التطوير ». والنتيجة او المطلوب يوجزه الفائز بجائزة الدولة التقديرية هذا العام بقوله : « ولكن الذي اجهد ان انقله من ذممنا الى ذمتك يا سيدي الرئيس هو ان التطوير غير التدمير ، وان حماية مقدساتنا هي اكرم على الله، وعليك، وعلى الناس من حماية حرية الهدم باسم حرية التفسير وحرية التعبير » .

اخطأت الرجعية في هذا الخطاب حساب الزمان والمكان، ولكنها اخطأت من قبل ومن بعد اختيار من يمثلها في هذه المؤامرة الجديدة . ان المراقب الامين لاحداث لعبة الشطرنج في الحركة الثقافية المصرية يدرك بسهولة ويسر ان الرجعية في مركز حرج . يدرك ذلك في بساطة حين يتابع من اليوم التالي لعيد العلم عشرات التعليقات الحادة في هجومها على الخطاب الرجعي المسعور ، هذه التعليقات التي اتخذت انضج اشكالها عند احمد بهاء الدين حين كتب في افتتاحية « المصور » (٢٤/ ١٢/١٩٦٥) يقول : « ماذا نفعل وفي حياتنا الادبية والفنية بالفعل من كانوا دائما عونا للاستعمار والعرش وخصوما للشعب ؟ استخدام اللغة العامية عندهم كفر، اما ما كان من تجويع الشعب وارهاقه وفسق الحكام وفجورهم وابقاء الامة في ربقة التخلف فهو في عرفهم لا يتعارض مع الايمان الصحيح ! ما حيلتنا واجهزة في الدولة كثيرة لا تشجعهم فحسب بل تضعهم بكل ما يعتمل في نفسهم من مرارة حيث يتمكنون من خنق انفاس المحاولات الجديدة وشن الحروب غير البريئة عليها ؟». ان اهمية مقال احمد بهاء الدين انه اول من وضع القضية وضعها الصحيح ، فقال بصراحة كاملة ان اولئك الذين يثيرون مسألة الفصحى والعامية انما يثيرون في الواقع بشكل ملتوٍ مسألة اخرى هي الهدف من معاركهم المفتعلة، هي مسألة التحول الاجتماعي في مصر . والا فما معنى ما جاء في خطاب عزيز اباظة من ان « السبيل يا سيدي الرئيس الى عليا الاهداف ليست مفروشة بين غدير وزهر . وسالك هذا السبيل قد يضطره ما يراه من عظمة غايته الى ما ليس مأخوذا في طريقته !» فما هو هذا الذي تقوم به الثورة مما يعد « ليس مأخوذا في طريقتها » ؟ هل هو سعيها الى العدل الاجتماعي بكل ما يعنيه من تصفية طبقة المتحدث؟ ولو انه قد تحفظ قليلا ، وعبر عن هذه الخواطر

متكلما عن نفسه فقط ، لهان الامر ، ولكنه لم يتحرج من ان يتحدث وكأنه ممثل حزب او زعيم اغلبية ، فيقول : « وعندي وعند جمهرة هذه الامة » ، ويقول : « الذي اجهد ان انقله من ذممنا الى ذمتك يا سيدي الرئيس ان حماية مقدساتنا هي اكرم على الله من حمـــاية حرية الهدم » . اي بصراحة ، ان هناك في قمة السلطة في هذا البلد من يحمي حرية الهدم !

وبالرغم من ان خطـاب الرئيس في عيد العلم كان يتضمن، مصادفة، ردا حاسما على عريضة الاتهام هذه ، وبالرغم مـــن ان وجود ام كلثوم وعبد الوهاب وصلاح جـاهين وسعد وهبة في مقدمـة صفوف الفائزين يعتبر تأكيدا عمليا لخطاب الرئيس، الا ان خطاب اباظـة قوبل بعاصفة مدوية من الاستنكار الشديد . ذلك ان اختيار عزيز اباظة منذ البداية كان اختيارا سيئا من جانب الرجعية المحصنة خلف اسوار المجلس الاعلى لرعـاية الفنون والآداب . كذلك لان هذه الرجعية اخطأت كما قلت حساب الزمان والمكان ، فلم « يترافع » عن عزيز اباظة الا كاتب واحد في ركن الادب بجريدة « الاخبار » (١٩٦٥/١٢/٢٤) . وكانت كلمته من التهـافت بحيث لم يتكلف احد بالرد عليها ، خاصة وان صاحبها هو الرجل الذي يكتب بالعامية منذ نعومة اظافره الادبية الى الآن.. والمسألة بالتالي ليست مسألة ايمان، وانما مسألة منفعة يحتمها عنصر التجاوز في لجان المجلس الاعلى، ويمليها عنصر الولاء الشخصي في مجتمع الاقطاع الادبي اذا مـا حانت الفرصة .

المهم ان الرجعية فعلا في مأزق حرج . ولكن المثقفين التقدميين مـا يزالون رابضين في طور متخلف من اطوار نمونا الروحي ، ومـــا يزالون يختلفون على البديهيات الملزمة لكل انسان شريف يجرؤ على التوحيد بين الفكر والسلوك. لقد قاطعوا ندوة وزير الثقافة التي طالب فيها البعض بفرض الرقابة على النشر. حسنا ، ولكنهم ينتظمون جميعا في ندوات يعرضون فيها خلافاتهم المؤسفة حول اوليات التجمع الفكري المفترض ، الفباء وحدة اليسار. ما معنى « الوحدة الفكرية بين المثقفين » اذاً ؟ انها قطعا ليست الالتزام بتخطيط العمل الفني او الفكري في تفاصيله ، وانما هي الالتزام بخطة عمل موحدة . ولست افهم هذه الخطة التي تدفعنا لمقاطعة بضاعة احد المصانع ، وللاقبال في نفس الوقت على اخذ البضاعة ذاتها من مصنع آخر.

ان القاهرة تموج بحركة نشيطة الى ابعد حد في المجال الثقافي . ولكن الوجه الثوري الوحيد لهذه الحركة هو ندوات الاتحـــاد الاشتراكي ، فهي الندوات الجديّة الوحيدة . وما عداها ندوات لا يفهم المدعوون اليها انهـا البديل (الشرعي !) لمؤتمر الدراسات الاشتراكية الذي دعـا اليه المجلس الاعلى في مواجهة دعوة « الاشتراكي » ثم تنبهت السلطة في اللحظـــة الاخيرة والغته . الندوات الجديدة هي الصورة المصغرة للمؤتمر المفقود ، فما معنى ان ينتظم الكتّاب التقدميون في هـــذه الاجتماعـات وهم يعلمون حقيقتها ؟ بينما ندوات الاتحاد الاشتراكي في حـــاجة ماسة الى كل مجهود ثوري حقيقي . اخشى مـا اخشاه ان تنجح مناورات الرجعية مرة اخرى في سحب الارض من تحت القوى التقدمية التي مـا تزال تتناصر في حركة دائرية هوجاء. ينبغي اخيرا ان ينتهي عهد الشلل « الادبية » الملتفة حول الموائد الملونـة ، وينتهي ايضا عهد المعارك الفردية الدون كيشوتية. ان الفرصة شديدة النضج امـامنا لننتمي ذلك الانتماء العظيم الذي تتحقق فيه « الوحدة الفكرية بين المثقفين » على اساس راسخ من الالتزام بانساننا واكثر قيمنا تقدما وثورية . والا فالطاحونة التي قتلت المعداوي مـا تزال لديها القدرة على اغتيال جيل كامل . فالرياح الرجعية القادمة غدا سوف تكون شديدة الوطأة ، واية محـاولة للصمت او الانعزال او الانتماء للموائد الملونـة او الفروسية الرومنطيقيـــة سوف تكون الركيزة الرئيسية للرجعية الجريحة ، المفتوحة العينين .